

كِتَابُ

فَضَائِلِ الْقُرَّانِ

لِلإمام الحافظ
أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر
ابن كثير

حَقَّقَ أَصْلَهُ وَخَرَجَ حَدِيثَهُ
أَبُو إِسْحَاقَ الْحَوْثِيُّ الْأَمْرِيُّ
عَفَا اللَّهُ عَنْهُ

توزيع
مكتبة العلم بحجة
حي الثغر هافند ١١٠٦٨٧٧٠

الناشر
مكتبة ابن تيمية
القاهرة
هاتف: ٨٦٤٤٠٠

هذه النسخة الإلكترونية

من إنتاج

موقع فضيلة الشيخ

حفظه الله

أبي إسحاق الحويني

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ

www.alheweny.org
www.al-heweny.com
www.alheweny.ws
www.elheweny.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله تعالى نحمده ، ونستعين به ونستغفره ؛ ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله تعالى فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتابُ الله تعالى ، وأحسن الهدي هدي محمدٍ ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

* * *

فهذا كتاب « فضائل القرآن » للإمام النحرير ، السلفي الكبير عماد الدين أبي الفداء المعروف به ابن كثير ، جرى فيه على منوال البخاري ، فذكر متنه وخرَّج أحاديثه ، وعلَّق عليها تعليقات يسيرة ، ثم أردف ذلك بباب جامع ، سرد فيه طائفة من جياذ الأحاديث ، وألحقه الحافظ ابن كثير في آخر تفسيره في أول الأمر ، ثم أثبت في أول التفسير بعد ذلك فقال في « النسخة المكية » والمرموز لها بالرمز « أ » وكتبت سنة (٧٥٩) في حياة المصنف ، وقبل موته بخمسة عشر عامًا ، قال رحمه الله : « ذكر البخاري رحمه الله كتاب « فضائل القرآن » بعد « كتاب التفسير » ؛ لأن التفسير أهم ، فلهذا بدأ به ، فجرينا على منواله وسننه مقتدين به » .

وقال في النسخة التي كتبها العالم الحنبلي ابنُ المحب رحمه الله ، واسمه أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب ، وكانت وفاته سنة (٧٧٦) في شهر ربيع الآخر كما في « الدرر الكامنة » (١ / ٢٤٤ / رقم ٦٣١) ، وكتب ابنُ المحب هذه النسخة في حياة المصنف ، وله تقييدات عليها بخطه وهي في

غاية الإتقان والتحرير ، فقال ابن كثير رحمه الله : « ذكر البخاري رحمه الله كتاب فضائل القرآن » بعد « كتاب التفسير » لأن التفسير أهم ، فلهذا بدأ به ، ونحن قدّمنا الفضائل قبل التفسير ، وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها ؛ ليكون ذلك باعثًا على حفظ القرآن ، وفهمه والعمل بما فيه ، والله المستعان . ا هـ .

وقد طبع هذا الكتاب مرارًا على مطبوعة الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ، واعتمد فيها على النسخة المكية ، ولكن وقع في هذه المطبوعة تحريف كثير وطبعه الناس بعده مقتفين أثره حتى في هذا التحريف ، ولم يخدم بتخريج أحاديثه وآثاره ، أضف إلى ذلك أن ابن كثير ألحق نحو صفحتين خلّت منهما النسخة المكية ، فبهذا تكون هذه الطبعة هي الوحيدة الكاملة ، واعتمدت في إخراجها على أربع مخطوطات ، يأتي وصفهن إن شاء الله ، وأوليتُ النص عناية فائقة ، وأرجو أن يكون كما صنّفه صاحبه إن شاء الله تعالى ، وخرّجتُ أحاديثه تخريجًا مختصرًا ، وقد أطيل أحيانًا إطالة خفيفة لأمرٍ اقتضاه المقام ، وقد بسطت تخريج أحاديث هذا الكتاب في كتابي « تسلية الكظيم بتخريج أحاديث وآثار تفسير القرآن العظيم » وقد نُجِزَ منه ثلاث مجلدات إلى نهاية سورة الفاتحة . والله أسأل أن يجعله زادًا إلى حُسن المصير إليه ، وعتادًا إلى يُمن القُدوم عليه ، إنه بكل جميل كفيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً .

وكتبه

راجي عفو ربه الغفور

أبو إسحاق الحويني الأثري

حامدًا الله تعالى ومصليًا على نبيينا محمد

وآله وصحبه أجمعين

أول ذي الحجة / ١٤١٥ هـ .

□ ترجمة الحافظ ابن كثير ، رحمة الله^(١) □

الإمام الحافظ الحجة المحدث المؤرخ الثقة ، ذو الفضائل ، عماد الدين ، أبو الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، القرشي ، الدمشقي ، الشافعي .

ولد رحمه الله بقرية « مجدل » من أعمال « بصرى »^(٢) . وكان أبوه من أهل « بصرى » ، وأمه من قرية « مجدل » .

وقومه كانوا « ينتسبون إلى الشرف ، وبأيديهم نسب ، وقف على بعضها شيخنا المزي فأعجبه ذلك وابتهج به ، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك « القرشي » - كما قال هو في ترجمة أبيه ، في تاريخه « البداية والنهاية » .

وتاريخ مولده سنة ٧٠٠ ، كما ذكر أكثر من ترجم له ، « أو بعدها بقليل » كما قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة . وهو تاريخ تقريبي . أرجح أنه مستبطن من كلامه في ترجمة أبيه ، حيث ذكر أن أباه « توفي سنة ٧٠٣ ... وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم » .

و« ابن ثلاث سنين » لا يعرف تواريخ السنين - على اليقين - في تلك السن . فقد سمع إذن تحديده السنة التي مات فيها أبوه ممن حوله من إخوة أو أهل أو جيران . ولكنه يدرك أباه « كالحلم » . فالذي هو في سن أقل

(١) مأخوذة من « عمدة التفسير » للشيخ العلامة المحدث أبي الأشبال أحمد بن محمد شاکر ، رحمه الله ورضي عنه .

(٢) « مجدل » : بكسر الميم وفتحها مع سكون الدال . و« بصرى » بضم الباء وسكون الصاد وآخرها ألف مقصورة : بلد بالشام من أعمال دمشق . وهي قصبة كورة « حوران » .

من الثلاث ما أظنه يذكر شيئاً « كالحلم » ولا أبعد من الحلم ولا أقرب . فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة - في أكبر ظني - ولذلك أرجح أن مولده كان في سنة ٧٠٠ أو قبلها بقليل . وهو أقرب إلى الصحة من قول الحافظ ابن حجر : « أو بعدها بقليل » . لأن الذي « بعدها » لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه .

وكان أبوه « الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير » من العلماء الفقهاء الخطباء . ولد - كما قال ابنه - في حدود سنة ٦٤٠ . وترجم له ابنه الحافظ في تاريخه الكبير « البداية والنهاية » ، ج ١٤ ص ٣١ - ٣٣ . ومما قال في ترجمته : « اشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى . فقرأ « البداية » في مذهب أبي حنيفة ، وحفظ « جمل الزجاجي » ، وعُني بالنحو والعربية واللغة ، وحفظ أشعار العرب ، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق في المدح والمرثي وقليل من الهجاء . وقرر بمدارس بصرى بمبرك الناقة شمالي البلدة ، حيث يُزار ، وهو المبرك المشهور عند الناس^(١) ! والله أعلم بصحة ذلك . ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى ، وتمذهب للشافعي ، وأخذ عن النواوي والشيخ تقي الدين الفزاري - وكان يكرمه ويحترمه ، فيما أخبرني شيخنا العلامة ابن الزملكاني . فأقام بها نحو من ١٢ سنة . ثم تحوّل إلى خطابة « مجدل » : القرية التي منها الوالدة . فأقام بها مدة طويلة ، في خير وكفاية وتلاوة كثيرة . وكان يخطب جيداً ، وله مقول عند الناس ، ولكلامه وقع ؛ لديانته وفصاحته وحلاوته . وكان يؤثر الإقامة في البلاد^(٢) ، لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعِياله . وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها . أكبرهم : إسماعيل ، ثم يونس ،

(١) يريد هؤلاء الناس - فيما يزعمون - : مبرك ناقة صالح عليه السلام .

(٢) يعني القرى .

وإدريس . ثم من الوالدة : عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، وأخوات عدة .
ثم أنا أصغرهم ، وسُميت باسم الأخ " إسماعيل " - لأنه كان قد قدم
دمشق ، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده ، وقرأ مقدمة في النحو ،
وحفظ التنبية ، وشرحه على العلامة تاج الدين الفزاري ، وحصل المنتخب
في أصول الفقه . قاله لي شيخنا ابن الزملكاني . ثم إنه سقط من سطح
الشامية البرانية ، فمكث أياماً ومات . فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ، وراثه
بأبيات كثيرة . فلما ولدتُ أنا له بعد ذلك سماني باسمه . فأكبر أولاده :
إسماعيل ، وأصغرهم وآخرهم : إسماعيل . فرحم الله من سلف ، وختم بخير
لمن بقي . توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣ في قرية مجدل ،
ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون ، وكنت إذ ذاك صغيراً ، ابن ثلاث سنين
أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم . ثم تحولنا من بعده في سنة ٧٠٧ إلى
دمشق ، صحبة " كمال الدين عبد الوهاب " وقد كان لنا شقيقاً ، وبنا
رفيقاً شغوفاً . وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين [يعني سنة ٧٥٠] ،
فاشتغلتُ على يديه في العلم ، فسرَّ الله تعالى منه ما يسر ، وسهَّل منه ما
تعسر .

وقد بدأ الاشتغال بالعلم على يدي أخيه عبد الوهاب - كما قال آنفاً -
ثم اجتهد في تحصيل العلوم على العلماء الكبار في عصره . وحفظ القرآن
الكريم ، وختم حفظه سنة ٧١١ ، كما صرح بذلك في تاريخه ١٤ : ٣١٢ .
وقرأ بالقراءات ، حتى عدّه الداودي من القراء^(١) ، وترجم له في طبقاتهم
التي ألفها^(٢) . وسمع الحديث من كثير من أئمة الحفاظ في عصره . وعُني

(١) الداودي : هو شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي المصري ، مات سنة

٩٤٥ . ولكن ابن الجزري لم يذكر ابن كثير في طبقات القراء .

(٢) ومما ينبغي التنبيه إليه : أن « ابن كثير » هذا الحافظ المفسر ، غير « ابن =

بالسماع والإكثار منه . فمما ذكر في تاريخه ١٤ : ١٤٩ ، أنه سمع صحيح مسلم في تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين ابن العسقلاني ، بقراءة الوزير العالم أبي القاسم محمد بن محمد بن سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي ، المتوفى بالقاهرة في ٢٢ محرم سنة ٧٣٠ - حين قدم دمشق في جمادى الأولى سنة ٧٢٤ عازماً على الحج .

وذكر في ترجمة شيخه الكبير المعمر الرحلة شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة : أنه سمع عليه « بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحوًا من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع » . وهذا الشيخ « عاش مائة سنة محققًا ، وزاد عليها » . وتوفي سنة ٧٣٠ . (التاريخ ١٤ : ١٥٠) .

وتفقه على الشيخين برهان الدين الفزاري وكمال الدين ابن قاضي شعبة . وحفظ التنبيه للشيرازي في فروع الشافعية ، ومختصر ابن الحاجب في الأصول . ولزم الحافظ الكبير أبا الحجاج المزني ، وقرأ عليه مؤلفه العظيم في الرجال « تهذيب الكمال » ، وصاهره على ابنته زينب^(١) . وكان من أعظم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولازمه وتخرج على يديه ، وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه ، وأتباع له في كثير من آرائه . وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق^(٢) ، وامتنحن بسبب ذلك وأوذى .

= كثير « أحد القراء السبعة . فذاك اسمه « عبد الله بن كثير المكي » ، إمام أهل مكة في القراءة ، وهو قديم من التابعين ، روى عن ابن الزبير وأنس بن مالك . ولد سنة ٤٥ ، ومات سنة ١٢٠ .

(١) ذكرها باسمها في ترجمة شيخه الحافظ المزني ، المتوفى سنة ٧٤٢ . (التاريخ ١٤ : ١٩١ - ١٩٢) .

(٢) أي وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد طليقة واحدة ، كما هو الحق الذي =

وكان من أفذاذ العلماء في عصره . أثنى عليه معاصروه وتلاميذه ومن بعدهم - الثناء الجَمُّ :

فذكره الحافظ الذهبي في طبقات الحفاظ ٤ : ٢٩ ، مع أن الذهبي يكاد يكون من طبقة شيوخه ؛ لأنه مات سنة ٧٤٨ ، قبل ابن كثير بـ ٢٦ سنة . فقال في طبقات الحفاظ : « وسمعتُ مع الفقيه المفتي المحدث ، ذي الفضائل ، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البُصْرُوي الشافعي ... سمع من ابن الشحنة وابن الرداد وطائفة . له عناية بالرجال والتمون والفقه . خرَّج وناظر وصنَّف وفسَّر وتقدَّم » . وقال الذهبي في المعجم المختص - فيما نقل ابن حجر وغيره : « الإمام المفتي المحدث البارع ، فقيه متقن ، محدث متقن ، مفسرٌ نقال » .

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجي : « كان أحفظ من أدركناه لمتون لأحاديث . وأعرَفهم بتخريجها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها . وكان قرانه وشيوخه يعترفون نه بذنث . وكان يستحضر كثيراً من التفسير والتاريخ ، قليل النسيان . وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن ، ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت . ويشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر . وما أعرف أني اجتمعت به - على كثرة تردُّدي عليه - إلا واستفدت منه » . (عن النعمي في كتاب الدارس) .

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني في ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٥٨) : « وصاهر شيخنا أبا الحجاج المزني فأكثر عنه . وأفتى ودرّس وناظر ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو . وأمعن النظر في الرجال والعلل » .

وقال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة : « ولازم المزي ، وقرأ عليه تهذيب الكمال ، وصاهره على ابنته . وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه ، وامُتحن بسببه . وكان كثير الاستحضر ، حسن المفاكهة . سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته . ولم يكن على طريقة المحدثين في تحصيل العوالي ، وتمييز العاليي من النازل ونحو ذلك من فنونهم . وإنما هو من محدثي الفقهاء . وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح^(١) ، وله فيه فوائد . »

ونقل السيوطي في ذيل طبقات الحفاظ كلام الحافظ ابن حجر في أنه « لم يكن على طريقة المحدثين ... » ثم تعقبه بقوله : « العمدة في علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه ، وعمله واختلاف طرقه ، ورجاله جرحاً وتعديلاً . وأما العاليي والنازل ونحو ذلك - فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة . » وهذا حق .

وقال السيوطي أيضاً : « له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله . »

وقال العلامة العيني - فيما نقل عنه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة - : « كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ . وسمع وجمع ، وصنف ودرس ، وحديث وألف . وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهى إليه

(١) كتابه هذا هو « اختصار علوم الحديث » . طبع أول مرة في مكة المكرمة بالمطبعة الماجدية سنة ١٣٥٣ ، بتصحيح أخيها العلامة الكبير الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، أحد كبار المدرسين الآن بالحرم المكي . ثم شرحته أنا شرحاً متوسطاً ، وطبع في مصر في شهر ذي القعدة سنة ١٣٥٥ . ثم أعدت طبعه مرة أخرى مع زيادات وتنقيح في الشرح ، في شهر ذي الحجة سنة ١٣٧٠ .

علم التاريخ والحديث والتفسير . وله مصنفات عديدة مفيدة .

ووصفه الحافظ العلامة شمس الدين بن ناصر، في كتاب « الرد الوافر » - بأنه « الشيخ الإمام العلامة الحافظ ، عماد الدين ، ثقة المحدثين ، عمدة المؤرخين ، عَلمُ المفسرين » .

وقال فيه ابن حبيب - فيما نقل الداودي في طبقات القراء وابن العماد في الشذرات : « إمام ذوي التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل . سمع وجمع وصنف ، وأطرب الأسماع بأقواله وشنّف ، وحدث وأفاد ، وطارق فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير » .

وروى له الحافظ ابن حجر في إنباء الغمر ، وابن العماد في الشذرات -
البيتين المشهورين ، الذائعين على الألسنة :

تَمُرُّ بِنَا الْأَيَّامُ تَثْرَى وَإِنَّمَا نُسَاقُ إِلَى الْأَجَالِ وَالْعَيْنُ تَنْظُرُ
فَلَا عَائِدَ ذَاكَ الشَّبَابُ الَّذِي مَضَى وَلَا زَائِلَ هَذَا الْمَشِيبِ الْمُكَدَّرُ

وصُحْبَتُهُ وملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية أفادته أعظم الفوائد ، في علمه ودينه ، وتقوية خلقه ، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة .

فهو مستقل الرأي ، يدور مع الدليل حيث دار ، لا يتعصب لمذهبه ولا لغيره . وكتبه العظيمة ، وخاصةً هذا التفسير الجليل - فيها الدلائل الوافرة . ونجده - مع أنه شافعي المذهب - يفتي في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، بما رجّحته الدلائل الثابتة الصحاح ، أنه يقع طلاقة واحدة . ثم يُمتحن ويلقى الأذى ، فيثبت على قوله ، ويصبر على ما يلقي في سبيل الله .

وهو - وهو تلميذ شيخ الإسلام ومن خاصة أنصاره - يعرف ما كان بين شيخه شيخ الإسلام ، وبين قاضي القضاة تقي الدين السبكي - ومع

ذلك فإنه لا يُعين عليه في محنةٍ لحقته ، بل يعلن عن غبطته بأن نزول عنه المحنة . فيذكر في التاريخ - في حوادث سنة ٧٤٣ (١٤ : ٢٠٤) أنه أُرْجف الناس كثيراً بقاضي القضاة - في دمشق - « واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام إلى الطنبغا وإلى الفخري . وكتب فتوى عليه بذلك في تغريمه ، وداروا بها على المفتين ، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضي جلال الدين بن حسام الدين الحنفي ، رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة . وسئلت في الإفتاء عليها فامتعت ؛ لما فيها من التشويش على الحكام » . ثم يقول : « وكانوا له في نيةٍ عجيبة ، ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية » .

فهذا تُخلق أهل العلم النبلاء الأتقياء .

وقد طار ذكره في الأقطار الإسلامية ، حتى إنه ليذكر في حوادث سنة ٧٦٣ (١٤ : ٢٩٤ - ٢٩٥) أن شاباً عجمياً حضر من بلاد تبريز وخراسان ، « يزعم أنه يحفظ البخاري ومسلماً وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري وغير ذلك » ، وأنه امتحنه بقراءة مجالس من البخاري وغيره بحضرة قاضي القضاة الشافعي وجماعة من الفضلاء ، ثم قال : « وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة . وقال : أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك ، وأن تجيزني ، وذكرك في بلادنا مشهور » .

وهذا الخبر يدل على أن كتابه « جامع المسانيد » وصل إلى أقصى الشرق ، في بلاد تبريز وخراسان ، حتى يحفظه هذا الشاب الأعجمي أو يحفظ شيئاً منه . في حين أن الحافظ ابن كثير لم يتم تأليف « جامع المسانيد » كما هو معروف . فكأن العلماء وطلاب العلم كانوا ينسخون ما يخرج منه ، ويتداولونه بينهم ، حتى يصل من دمشق إلى تلك النواحي النائية .

ولم يكن ممن يُخدع في الفتاوى التي ظاهرها قصد الاستفتاء ،

ووراءها الأعيب سياسية ، أو أغراض شخصية غير سليمة ، وإن كان المستفتي من الأمراء أو ممن يخشى بأسه . فهو يقول في حوادث سنة ٧٦٢ : « وجاءتني فتيا صورتها : ما تقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه . ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه ؟ وتصرف في المملكة ، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقته : فهل له الامتناع منه ، وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً ؟ وهل يُثاب الساعي في خلاص حقّ ورثة الملك المقتول من القصاص والمال ؟ أفنونا مأجورين ؟ » .

فهذا استفتاء صيغ في صورة تُوجي بالجواب . وباطنه أن ذاك الأمير السائل يريد أن يمتنع على الملك الذي دعاه للحضور عنده ، ويريد أن يشير فتنةً وفتناً على صاحب الأمر ، لعله يصل إلى ما وصل إليه ذاك من الملك ، كعادة الأمراء من الممالك في ذلك العهد . ولكن ابن كثير يجيبه جواباً حكيمًا يكشف عن بعض مقصده ، ويضمّن جوابه النصيحة الواجبة في مثل هذه الحال ، فيقول : « فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير : إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى - فهو أعلم بنيته في الذي يقصده ! ولا يسعى في تحصيل حقّ معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة في ذلك ، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه ! وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة ، والأمراء عليه - فلا بدّ أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولاً ، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقه » .
(التاريخ ١٤ : ٢٨١ : ٢٨٢) .

وكان الإفرنج قد غدروا بمدينة الإسكندرية ، وأشاعوا فيها الرعب ، وارتكبوا الفظائع غدراً . وذلك : أنهم وصلوا إليها من البحر يوم الأربعاء ٢٢ محرم سنة ٧٦٧ « فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً ، ولا حافظاً للبحر

ولا ناصرًا . فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار ، بعدما حرقوا أبوابًا كثيرة منها . وعاثوا في أهلها فسادًا ؛ يقتلون الرجال ، ويأخذون الأموال ، ويأسرون النساء والأطفال ، فالحكم لله العليّ الكبير المتعال . وأقاموا يوم الجمعة والسبت والأحد والإثنين والثلاثاء . فلما كان صبيحة الأربعاء قدم الشاليش المصري^(١) ، فأقلعت الفرنج - لعنهم الله - عنها ، وقد أسروا خلقًا كثيرًا يقاربون الأربعة آلاف ، وأخذوا من الأموال ذهبًا وحريرًا وبهارة وغير ذلك ، ما لا يُحدّد ولا يُوصف . وقدم السلطان والأمير الكبير يلغا ظهر يومئذٍ وقد تفارط الحال ، وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر ، فسُمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله ، والاستغاثة به وبالمسلمين - ما قطع الأكباد ، وذرفت له العيون وأصمّ الأسماع . فإنّا لله وإنّا إليه راجعون . ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شقّ عليهم ذلك جدًّا ، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر ، فتباكى الناس كثيرًا . فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

فهذه وقعة شنيعة غادرة من الإفرنج - كعادتهم - والنفوس تتقرّز من مثلها ، وتثور من أجلها . والملوك والأمراء الظالمون ينتهزون فرصة تعبئة الرأي العام الإسلامي - وتورثه من أجل هذا الغدر ، وغضبًا لهذه الفظائع - ليأكلوا أموال الناس بالباطل ، وظاهر أمرهم الانتقام وباطنه السلب والنهب .

(١) في النجوم الزاهرة (١١ : ٢٩ طبعة دار الكتب المصرية) : « فلما وصل السلطان إلى الطرانة أرسل جاليشًا من الأمراء أمامه في خفية ... » . وكتب مصححه الأستاذ محمد البرهامي منصور ، بهامشه : « الجاليش : مقدمة الجيش ، والراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر » . وهي كلمة أعجمية - لعلها تركية أو فارسية - وفي مثلها الجيم شديدة التعطيش - بين الجيم والشين - فيجوز تعريبها جيمًا أو شينًا ، مثل « شاوئش » و « جاوئش » .

ولكن الحافظ ابن كثير يلزم جانب الحق والعدل ، ولا يرضى بالظلم ، ولو كان ظاهره الانتقام والثأر للمسلمين ، فيقول : « وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية ، إلى نائب السلطنة ، يَمَسُكُ النصارى من الشام جملة واحدة ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم ، لعمارة ما خُرب من الإسكندرية ، ولعمارة مراكب تغزو الإفرنج . فأهانوا النصارى ، وطلبوا من بيوتهم بعثف . وخافوا أن يُقتلوا ، ولم يفهموا ما يُراد بهم ، فهربوا كل مهرب . ” ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً “ . وقد طُلبت يوم السبت السادس عشر من صفر [أي سنة ٧٦٧] إلى الميدان الأخضر ، للاجتماع بنائب السلطنة ، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ ، بعد الفراغ من لعب الكرة . فرأيت منه أنساً كبيراً ، ورأيتَه كامل الفهم ، حسن العبارة كريم المجالسة . ” فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتمادُه في النصارى “ [يعني المرسوم بالمصادرة] ، فقال : إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ! فقلتُ : له ” هذا مما لا يسوغ شرعاً ، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا . ومتى كانوا باقين على الذمة ، يؤدُّون إلينا الجزية ملتزمين بالذَّلة والصَّغار ، وأحكامُ الملة قائمة - لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد الفردُ فوق ما يبذلونه من الجزية . ومثل هذا لا يخفى على الأمير “ ! فقال : كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ؟ ولا يمكنني أن أخالفه ؟ ” . ثم ذكر أن نائب السلطنة كتب بذلك إلى الديار المصرية . ولكن هذا النائب لم يكن عند قوله ، فنفذ المرسوم ، و« طلب النصارى الذين اجتمعوا في كنيستهم إلى بين يديه ، وهم قريب من أربعمائة ، فحلَّفهم : كم أموالكم ؟ والزمهم بأداء الربع من أموالهم ، ” فإننا لله وإنا إليه راجعون “ . وكانت هذا المصادرة الظالمة في شهر ربيع الأول سنة ٧٦٧ . ثم قال الحافظ - في حوادث شهر ربيع الآخر : « وفي أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطاني ، بالردِّ على نساء النصارى ما كان أخذ منهنَّ مع الجباية التي كان تقدَّم أخذها منهم ” وإن

كان الجمع ظلماً ، ولكن الأخذ من النساء أفحش وأبلغ في الظلم « .
(التاريخ ١٤ : ٣١٤ - ٣١٥ ، ٣١٨) .

فانظر إلى هذا الإمام العظيم ، الذي يقف عند حدود الشريعة المطهرة ،
يقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف ، ويألم ويسترجع لما
ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين ، كما ألم واسترجع
من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى وبغيهم ، وشتان هذا وذاك .
ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل .

فكان هذا العقل المستقل العظيم الثابت على الحق ، والذي لا تغلبه
العواطف والأهواء ، مما يجعل للرجل منزلة عند الناس كبيرة . يثق به أنصاره
وغير أنصاره ، وموافقوه ومخالفوه . بل جعله موضع الثقة والاستشارة عند
الذميين ، حتى ليستشيره بعض رؤسائهم ، في أخص شئونهم الكنيسية ، فإنه
يذكر قصة طريفة ، في استشارة أحد البطاركة إياه في ذلك ، يحسن أن
نذكرها بعبارة بحروفها :

فقال - في حوادث سنة ٧٦٧ : « حضر عندي يوم الثلاثاء تاسع شوال ،
البترک بشارة ، الملقب بميخائيل ، وأخبرني أن المطارنة بالشام بايعوه على أن جعلوه
بترکاً بدمشق ، عوضاً عن البترک بأنطاكية . فذكرت له أن هذا أمر مبتدع في
دينهم ، فإنه لا تكون البتاركة إلا أربعة : بالإسكندرية ، وبالقدس ، وبأنطاكية ،
وبرومية . فنقل رومية إلى إسطنبول ، وهي القسطنطينية ، وقد أنكر عليهم
كثير منهم إذ ذاك ، فهذا الذي ابتدعوه في هذا الوقت أعظم من ذلك .
لكن اعتذر بأنه في الحقيقة هو عن أنطاكية ، وإنما أذن له في المقام بالشام
الشريف ، لأجل أنه أمره نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى
صاحب قبرص ، يذكر له ما حل بهم من الخزي والنكال والجنابة ؛ بنسب
عدوان صاحب قبرص على مدينة الإسكندرية . وأحضر لي الكتب إليه وإلى

ملك إسطنبول ، وقرأها عليّ من لفظه . لعنه الله ولعن المكتوب إليهم أيضاً !! وقد تكلمتُ معه في دينهم ، ونصوص ما يعتقدونه كلّ من الطوائف الثلاثة ، وهم : الملكية ، واليعقوبية - ومنهم الإفرنج والقبط - والنسطورية ، فإذا هو يفهم بعض الشيء . ولكن حصله أنه حمار ، من أكفر الكفار ! لعنه الله . (التاريخ ١٤ : ٣١٩ - ٣٢٠) .

ولا يعجبني القارئ من أن يكون ابن كثير أعلم بعقائد طوائف النصارى من أحد بتاركتهم . أستغفر الله ، بل إنه يذكر عن ذلك البترك ميخائيل الذي تكلم معه « أنه يفهم بعض الشيء » - لأن ابن كثير رحمه الله من أوسع العلماء اطلاعاً على أقوال أهل الملل والنحل ، وخاصة مذاهب المسيحيين ، كما يدل عليه كلامه في مواضع كثيرة في التفسير والتاريخ . بل يكفي في اندلالة علي سعة اطلاعه في ذلك أن يكون تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية . في موسوعته النفيسة في ذلك : « كتاب الجواب الصحيح عن شبهة المسيح » . وهو مصوغ معروف .

وكان - رحمه الله - قد أضرّ في آخر عمره . ثم مات يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤ . وقال ابن ناصر : « وكانت له جنازة حافلة مشهورة . ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية ، بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر من دمشق » . ا هـ .

قلْتُ : وأما مصنفاته فكثيرة ، وقد ذكرتها في مقدمتي لتفسيره الشهير ، فله الحمد على توفيقه . وهو المستعان .

* * *

□ وصف نسخ الكتاب الخطية □

اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على أربع نسخ :

○ النسخة الأولى :

وهي المرموز لها بالرمز « أ » وكتبت في حياة المصنف رحمه الله سنة (٧٥٩) ، ووقعت في المجلد العاشر من هذه النسخة من الورقة (١٩٣) إلى آخر الكتاب ، والذي ينتهي بالورقة (٢٣٨) وجاء في آخره : « آخر كتاب فضائل القرآن ، وبه تم التفسير للمحافظ العلامة الرحلة مفيد الطالبين ، الشيخ عماد الدين إسماعيل الشهير بـ « ابن كثير » كثر الله أمثاله ، على يد أفقر العباد إلى الله الغني : محمد بن أحمد بن معمر المقرئ بغدادي ، عفا الله عنه ونفعه بالعلم ووقفه للعمل به ، آمين . وحرس الله محمد ملك . آمين . بتاريخ الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وسبع مئة هـ هجرية ، صلوات الله وسلامه على مشرفها ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً » .

وخط النسخة حسن جيد ، في كل ورقة وجهان ، ومسطرتها (٢١) سطرًا في كل وجه . وهي من محفوظات مكتبة الحرم المكي زاده الله تشریفًا ، وهي مأخوذة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأوقاف ببغداد .

○ النسخة الثانية :

وهي المرموز لها بالرمز « ج » وكتبت في حياة المؤلف رحمه الله تعالى ، وقع لي منها المجلد الأول حسب ، وعدد أوراقه (٢٢٦) ورقة ، وفي كل ورقة وجهان ، ومسطرتها (٢٧) سطرًا ، وخطها في غاية

الحسن ، ويبدأ كتاب « فضائل القرآن » من الورقة رقم (٥ / ٢) وحتى الورقة (٤١ / ٢) وناسخها هو العالم العلامة أحمد بن محمد بن أحمد ابن المحب بن عبد الله المقدسي الحنبلي ، وكان من فضلاء العلماء تمهّر وتكلّم على الناس فأجاد ، وكانت له عناية بالحديث ، أحضر على الحجار ، وأسمع من غيره . مات في شهر ربيع الآخر سنة (٧٧٦) كما في « الدرر الكامنة » (١ / ٢٤٤) - يعني بعد وفاة ابن كثير بستين .

وهذه النسخة بها حواشٍ من خط المصنف ، وعليها تصحيحات ، وجاء في آخرها : « آخر السّفر الأول من هذه النسخة ، كتبه لنفسه العبد الفقير إلى عفو ربه القدير ، أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب ، عفا الله عنهم وسامحهم ، وهو يسأل الله تعالى بمنه وكرمه ، وفضله ولطفه أن يجعله من الذين اتقوا والذين هم محسنون . والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرًا ، وظاهرًا وباطنًا ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

○ النسخة الثالثة :

وهي المرموز لها بالرمز « ط » ، وهي من محفوظات دار الكتب المصرية ، وتقع في عشر مجلدات ، ووقع كتاب « فضائل القرآن » في آخر المجلد العاشر ، ويبدأ من الورقة (٢١٨) حتى الورقة (٢٦٠) وهي ناقصة من آخرها نحو ورقتين ، وهذه النسخة حسنة الخط والضبط كتبت سنة (٨٣٨) وجاء في آخرها : « آخر التفسير والله الحمد والمنة ، بيد الفقير إلى الله تعالى مرعي (؟) ابن عبد الله المرسي في تواريخ آخرها جمادى الآخرة من شهور سنة (٨٣٨) ويتلوه كتاب فضائل القرآن . »

○ النسخة الرابعة :

وهي المرموز لها بالرمز « ل » وهي من محفوظات الحرم المكي